المحاضرة الثانية: سلطة القديم و تجلياته1.

عناصر المحاضرة:

-مفهوم السلطة

-سيميائية السلطة

-قداسة القديم

-تجليات سلطة القديم

المحاضرة:

1-مفهوم السلطة:

يعرف ابن منظور في لسان العرب السلطة بقوله : " سلط : السلاطة : القهر وقد سلطه الله فتسلط عليهم ، والاسم سلطة بالضم . والسلط والسليط : الطويل اللسان . والأنثى سليطة وسلطانة و سلطانة ...ورجل سليط أي فصيح حديد اللسان بين السلاطة والسلوطة ...والسلطان قدرة الملك ... قال الفراء : السلطان عند العرب الحجة ، ويذكر ويؤنث ، فمن ذكّر السلطان ذهب إلى معنى الرجل ، ومن أنثه ذهب إلى معنى الحجة " (1) السلطة بهذا المنظور تعبر عن القهر والقدرة على الملك وترتبط بالحجة والقدرة على الإقناع ، وهو أمر يتحقق عبر الكلام مما يشير ضمنيا إلى سلطة الكلمة من جهة ، وربط السلطة بالخطاب من جهة أخرى . هذا الأخير الذي يعرف في القاموس نفسه على النحو الآتي : " الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، وهما يتخاطبان ...والخطبة

مصدر الخطيب ، وخطب الخاطب على المنبر ، واختطب يخطب خطابة ، واسم الكلام الخطبة" (2).والخطاب يمتلك قوته من امتلاكه سلطة . و السلطة في معجم المعاني "قوة سياسية يخضع لها المواطن"(3) و لكي تحقق هذه القوة "قوتها" في الواقع اليومي تؤسس باستمرار لآليات تضمن لها الاستمرارية .

و لعلنا نجد في مؤلف ناصيف نصار منطق السلطة مفهوما شاملا لهذا المصطلح ,يناسبنا أن نورده في هذا السياق يتحدث ناصيف يقول: " السلطة بمعناها العام هي الحق في الأمر، فهي تستلزم أمرا ومأمورا وآمرا له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأمورا عليه واجب الطاعة للآمر وتنفيذ الأمر الموجه إليه. إنها إذن علاقة بين طرفين متراضيين ، يعترف الأول منهما بأن ما يصدره من أمر إلى الطرف الثاني ليس واجبا عليه إلا لأنه صادر عن حق له فيه، ويعترف الثاني منهما بأن تنفيذه للأمر مبني على وجوب الطاعة عليه وحق الطرف الأول في إصدار الأمر إليه. فالمشكلة الأساسية الأولى في علاقة السلطة هي مشكلة الاعتراف بما تقوم به من حق وواجب عند طرفيها. فإذا كان هذا الاعتراف تاما ومتبادلا استقامت السلطة كعلامة أمرية مشروعة، ولكن إذا تطرق الخلل إليه، من جهة الآمر أومن جهة المأمور ، أو من جهة الأمر نفسه، فإنها تتعرض للارتباك والتصدع والوهن، وقد تنتهي إلى انهياره"(4) ولعل ميزة هذا التعريف أنه لا يتعلق بالسلطة بشكلها المحدود وإنما يشير إلى كل شكل أمري يتخذ طابعا مشروعا بين أفراد الجماعة ، مما يحدث الانسجام والقبول والتواصل في إطار تلك السلطة.

2-سيميائية السلطة: عندما نتحدث عن السلطة في هذا السياق فنحن لا نتحدث عنها بوصفها موضوعا سياسيا فقط بل بوصفها موضوعا"سيميولوجيا" و بوصفها كذلك تتخذ أشكالا متعددة تبدأ بسلطة الحكم و الحاكم و تصل إلى سلطة النص والنّاص. فالحكومة سلطة، والمجتمع

سلطة، والأسرة سلطة وأعراف الكلام ومعايير التذوق سلطة " فلكل قطاع منتج وفاعل في المجتمع سلطة ، ولكل سلطة أدوات سيطرتها " (5) بعض هذه الآليات ظاهر متجسد عبر أجهزة معينة ، و بعضها خفي رمزي يمارسه النظام السائد على الأفراد و الجماعات بالتواطؤ معه م" فالسلطة ليست شيئًا مُتموضعًا في مكانٍ ما، وإنّما هي عبارة عن نظامٍ من العلاقات المتشابكة، ونجد أنّ كلّ بنية العالم الاجتماعيّ، ينبغي أن تؤخذ بالحسبان، من أجل فهم آليّات الهيمنة والسيطرة" (6) و لعل الأشكال الرمزية للسلطة أكثر خطورة من أجهزتها الأمنية أو القضائية التي تسهر على حفظ الهيكل. إن القيم الثقافية و المعايير الأخلاقية و العادات السائدة و الأعراف المألوفة في وسط اجتماعي معين أو في بيئة حضارية معينة تملك سلطة عميقة ، قوية ، يمتثل لها الأفراد تلقائيا، غير أن مثل هذا الامتثال التلقائي ل يس قدرا أبديا على كل حال ، إذ يعيش الناس في المجتمع في الواقع بشكلين ،منهم من يحب أن ي حلب في إناء القوم ويسير في قافلة الجماعة مكرسا أوامرها ونواهيها (سلطتها) وهؤلاء يشكلون الأغلبية ومنهم من يخرج على الأنظمة " العامة" ويتمرد على " الجماعي" فيستغرق في بحثه عن رحلته " الخاصة" و " الأولون هم أهل الظاهر والمحافظة المقلدون في أمورهم الممسكون عن التصرف والتدبر ، يأخذون بآراء الجماعة ويلتزمون بشرائعها ويمتثلون لأوامرها، فسعادتهم في معاشرة الجماعة والاندماج بها والتماهي مع مثلها ورموزها، أما الآخرون فإنهم يميلون إلى الانفراد والعزلة ويقفون على مسافة من الجماعة" (7) لأنهم يرغبون في النقد والتغيير ويؤمنون بالإبداعية الفردية ويمقتون التسلط والانقياد، ولذلك تجدهم دوما في " حيرة وقلق وغربة" (8). فينتجون على الصعيد الإبداعي كتابة حائرة، قلقة ، غريبة. ويظهر ذلك غالبا عند المفكرين والمصلحين والأدباء والشعراء، الذين يمتلكون حساسية خاصة تجاه جميع الأوضاع، فيصعب عليهم تقبلها في رتابتها وتكرارها كما يصعب عليهم الانصهار في جهاز ما، لأن جهازهم الوحيد الذي يؤمنون به هو اللاجهاز أي الحرية التامة إذ" يدل التأمل الواقعي على ارتباط الحرية بالثقافة حتى يكاد يستحيل الفصل في النظرة إلى تاريخ الإنسانية المديد بين هذه وتلك . وإذا كانت العبودية التي

يتعرض لها الإنسان اجتماعية وطبيعية فان الثقافة تشكل الشرط الضروري – وان لم يكن الكافي – للتخلص منها" (9) و عندما نقول الثقافة شرط الحرية ، فالمقصود هنا الوعي بالأنساق المضمرة التي تتحكم بالظواهر و ليس مجرد معرفتها.

3-قداسة القديم:

يختلف الموقف من القديم باختلاف الشعوب و الثقافات ،حيث تميل بعض الشعوب إلى الماضي تمجيدا و احتفالا و ترى فيه نموذجها المثالي الذي يجب أن يحتدى دائما ، و تنشغل شعوب أخرى بالحاضر بوصفه الإمكان الحياتي الوحيد الذي يستحق العناية ، بينما ترسم بعض الشعوب وجودها عبر التطلع إلى المستقبل معتقدة بالهوية المتغيرة التي تتشكل في ظل التحول و التجدد . وانطلاقا من ذلك الموقف يجري تصنيف الشعوب و المجتمعات إلى مجتمعات تقليدية محافظة ومجتمعات حداثية معاصرة . الوصف السابق على الأدب و الثقافة بشكل عام حيث نصادف غالبا تيارين سائدين في معظم المجتمعات ، التيار المحافظ و التيار المجدد فإذا كان " التغير حقيقة تتأصل في عمق العقلية الحديثة فالثبات هو قانون جوهري في السجل الداخلي للعقلية التقليدية ، و هذا يعني أنه إذا كان التغير من طبيعة الأشياء في جوهر العقل الحديث ، فإن الثبات يتبدى حقيقة لا تقبل الجدل في العقل التقليدي" (10)

4-تجليات سلطة القديم :

إذا تأملنا المجتمعات العربية – و رغم ما نلاحظه في سلوكاتها و بعض مظاهر حياتها من تغيير– يبقى العقل العربي عقلا تقديسيا للماضي ، فهذا الزمن يمثل الخارق الذي ينبغي استعادته لمواجهة المستقبل كما يمثل في اللاشعور العربي رمز الحماية الذاتية،فالحقيقة توجد كاملة في ال قديم ، وهذا ما جعل محمد عابد الجابري ينتفض قائلا:" إن مشاكل الحاضر في ساحتنا الثقافية الراهنة ترجع في

جزء كبير منها إن لم يكن في معظمها إلى مشاكل الماضي" (11) و لعل النظر إلى الماضي بهذه النظرة جعل الأدب العربي يقع عبر كل عصوره رهينة لسطة القديم ، و قد تجلت هذه السلطة في مجموعة من المعايير الفنية و الفكرية تمثلت في :

– استمرار النموذج الإيقاعي للشعر العربي الجاهلي إلى غاية القرن الماضي.

– استمرار النموذج البلاغي الذي شيده الفحول إلى غاية القرن التاسع عشر و العودة إليه كلما انحط الأدب بوصفه مطلقا بلاغيا.

– استمرار النموذج القيمي و الفكري الذي أسسه القدامى، مما جعل الشعر العربي في مجمله يدور في دائرة واحد نواتها الفحولة و العصبية القبلية أو الدينية و المدح .

–من الناحية النقدية دافع جل النقاد عن النموذج القديم و لسان حالهم يردد ما قعّد به ابن قتيبة للقصيدة العربية " النموذجية" في نصه الشهير " إن مقصد القصيد .... فالشاعر المجيد من سلَك هذه الأساليب، ... وليس لمتأخِّر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين"

– لم تقتصر سلطة القديم في الثقافة العربية على هيمنة النموذج الأدبي و النقدي القديمين فقط ، بل يمكن تتبع آثاره في مختلف الحقول الفكرية و المعرفية بل و السياسية أيضا. ففي الحقل الديني مثلا نجد المجتمع العربي و منذ العهد الأول لتاريخ الدولة العربية يؤثر النقل على العقل التزاما بالآية القرآنية : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر و ذكر الله كثيرا "(12) القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، الآية 21. أو استنادا إلى أحاديث من مثل " يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله و أقدمهم قراءة ، فإن كانوا في القراءة سواء فلْعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدم هم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبركم سنا " (13) و لا يختلف الأمر على الصعيد السياسي فالمجتمع العربي بقي – لا شعوريا – سجين العصبية القبلية و إن ابتدع في كل مرة لغة تبرر هذه العصبية و تغطيها.

يمكن القول في الأخير ، إن القديم /المألوف ، في جميع الحقول، يشكل حماية ضمنية، و يمنح الأمان الرمزي للأفراد و المجتمعات فتلتف حوله مكرسة سلطته و امتداده في الزمن، فلا نعجب بعدها إذ وجدنا شاعرا مثل البارودي يتناسى زمنه ، و يبحر نحو أمجاد القدماء البلاغية مستعيدا إياها بذوق مطمئن كامل الطمأنينة.

هوامش المحاضرة